

القيام والصيام من أسباب المغفرة

ومن أسباب المغفرة في هذا الشهر صيام رمضان وقيامه وقيام ليلة القدر، وكذلك باقي الأعمال الخيرية كإخراج الصدقات والنفقات في سبيل الله، والذكر والدعاء والأعمال الصالحة، وتجنب الآثام، والابتعاد عن الإحرام، فذلك كله من الأسباب التي يغفر الله تعالى بها الذنوب، ويقبل بها الأعمال الصالحات. لا شك أن من جملة هذه الأعمال صلاة الليل، صلاة الليالي الشريفة، ليالي رمضان ليال شريفة، ليال فاضلة، قد أخبر الله تعالى بأنه أنزل فيها القرآن، وفيها ليلة القدر، وأنها خير من ألف شهر، ومن حكمة الله تعالى أن أخفى هذه الليلة حتى يجتهد المسلمون ويقوموا ما تبسر لهم من هذه الليالي، ويقتدوا بنبيهم -صلى الله عليه وسلم- ويعملوا بما يقدرون عليه من صفات أهل الإيمان الذين يحبون الله ويحبون الأعمال الصالحة التي يحبها الله، والتي يثيب عليها جزيل الثواب، وقد مدح الله تعالى الذين يصلون بالليل ويتهدون، فوصفهم بقوله تعالى: { وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا } أي يقطعون ليلهم أي أكثره ما بين سجد وقيام، وخص هذين الركنتين؛ لأنهما أكثر وأفضل أركان الصلاة، ولا شك أن معهما أيضا بقية الأركان من أذكار وأدعية وخشوع وقراءة. مع الإنابة إلى الله تعالى، والطمأنينة في هذه العبادة، وهكذا ذكر الله تعالى عن عباده أهل الثواب وأهل الجنة بأنهم { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } هكذا أخبر تعالى بأن من أعمالهم أنهم لا يطمنون للفرش، وأنهم لا ينامون إلا قليلا، وما ذاك إلا لأنهم يرجون ثواب الله تعالى وذكر قيامهم وصلاتهم في الليل. وكذلك وصف المتقين الذين هم أهل الجنة بقوله تعالى: { كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } فالهجوم هو النوم، أي قليل نومهم بالليل، فقاموا ليلهم يصلون ويتهدون، ثم في آخر الليل يجلسون يستغفرون، كأنهم مذنبون، هكذا تكون حال الصالحين، يعملون الأعمال الكثيرة ومع ذلك يعتبرون بأنهم مفلون وبأنهم مذنبون، فيستغفرون ربهم بعد كل عمل، وهكذا حال الخائفين، ومتى كان العبد كذلك فإن الله تعالى يقبل منه، ويضاعف أجره، وهكذا أهل الفضل، مع عملهم يخشون ألا يقبل منهم. ويقول الله تعالى: { أَمْ مَنْ هُوَ قَائِمٌ أَتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْأَخْرَءَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ } وهذا قائم في ساعات الليل، ليس في ساعة واحدة، وكأنه وصف هذا القائم بأنه يقوم ساعة ثم يستريح أخرى، ثم يقوم ثم يستريح، فمن صلاة إلى راحة وهكذا ساجدا وقائما، ينتقل في صلاته بين السجود والقيام والركوع والقيود، وما في الصلاة من بقية الأركان والعبادات. ولقد أمر الله تعالى نبيه -صلى الله عليه وسلم- بالقيام في قول الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الْمُرْسَلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نَضَعُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا } فهكذا وجه الله تعالى هذا الأمر إلى نبيه -صلى الله عليه وسلم- ليمتثل أمر ربه، وقد امتثل وطبق ما أمره به، فكان -صلى الله عليه وسلم- { يقوم أكثر الليل، ولا ينام إلا قليلا } يتقرب إلى ربه بصلاته وعبادته في الليل طوال زمن النبوة، أي بعد ما أوحى إليه؛ وذلك لأن هذه السورة نزلت عليه أول ما أوحى إليه، أمره الله بأن يقوم الليل إلا قليلا، نصفه أو ينقص منه أو يزيد على النصف، فامتثل ذلك، كما ذكر ذلك الذين رووا صلاته -صلى الله عليه وسلم- وقد رغب النبي -صلى الله عليه وسلم- في جنس قيام الليل، فثبت عنه أنه قال: { أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل } ولما ذكر فضائل الأعمال ذكر منها قيام الرجل في جوف الليل، وقرأ الآية التي في سورة السجدة { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ } أي أن هذا من أفضل الأعمال.